الفصل العاشر

وَصْفُ كَارِثَةِ نَجَازَاكِي بِلُغَةِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

تمهيـــــد :

لقد نقل الينا شهود العيان ما حل بالمدينة المنكوبة نجازاكى فى لغة توحى بصدق الحوادث والأحاسيس ، فعايشونا المأساة ولو لفترة من الزمن شعرنا فيها بهول المصاب وفداحة النازلة .

واذا أردنا ان نقتبس لغـة القرآن الكريم فى وصف بعض ما حـل بنجازاكى فلننظر ماذا عسانا أن نقول ..

ان هذا ما سنحاوله فيما يلى من فقرات باعتبارها عينات مختصرة لبعض ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد .

وقبل أن نبدأ هذه المحاولة نرانا فى حاجة الى استعراض معانى كلمات أربع (١) ذكرت متميزة فى القرآن الكريم عند الحديث عن تدمير القرون الأولى . وهذه الكلمات هى : الرجفة ـ الصيحة ـ الصاعقة ـ الظلة ، وكذلك حرف الفاء .

الرجفة : « (الرجفة) : الزلزلة وقد (رجفت) الأرض ، والرجفان بفتحتين : الاضطراب الشديد « وكذلك (رجف) الشيء رجفا : تحرك واضطراب ، ورجفت الأرض كذلك ورجفت يداه : ارتعشت من مرض أو كبر . ورجفته الحمى : أرعدته فهو راجف على غير قياس » .

(١) راجع : مختار الصحاح والمصباح المنير .

وعلى ذلك تكون : الرجفة هى الزلزلة أو الاضطراب او الرعشة أو الرعـدة ، أو هى الاهتزازة ، وهى تصيب الانسان والحيوان والنبـات والجماد .

الصيحة : « (الصياح) : الصوت وقد (صاح) يصـيح (صيحا) و (صيحة) » وكذلك « (صاح) بالشيء : صرخ » .

أى أن الصيحة هى الصوت أو الصرخة .

الصاعقة « (الصاعقة) : نار تسقط من السماء فى رعد شديد ويقال (صعقتهم) السماء اذا ألقت عليهم الصاعقة . (والصاعقة) أيضا : صيحة العذاب » .

ويقال كذلك « (صعق) : غشى عليه لصوت سمعه و (الصاعقة) : النازلة من الرعد والجمع صواعق ولا تصيب شيئا الا دكته وأحرقته)

فالصاعقة هى نار تسقط من السماء تصيب المخلوقات فتحرق ما تحرق وتدك ما تدك .

الظلة : « (الظلة) : أول سحابة تظل . وعذاب يوم الظلة : قالوا غيم تحته سموم » .

أى أن الظلة عبارة عن سحابة تظل فيها سموم ، أو هى مظلة هلاك »

حرف الفاء : « الفاء من حروف العطف ولها ثلاثة مواضع يعطف بها . وتدل على الترتيب والتعقيب مع الاشتراك تقول : ضربت زيدا فعمرا .

والموضع الثانى ــ يكون ما قبلها علة لما بعدها وتجرى على العطف والتعقيب دون الاشتراك ، تقول : ضربه فبكى وضربه فأوجعه ، اذا كان الضرب علة للبكاء والوجع ، والموضع الثالث ــ هو الذى يكون للابتداء وذلك فى جواب الشرط كقولك : ان تزرنى فأنت محسن . فما بعد الفاء كلام مستأنف يعمل بعضه فى بعض » .

ونلاحظ ان استخدام حرف الفاء فى وصف تدمير القرون الأولى ، كما غلب ذكره فى القرآن الكريم ، قد جاء على شاكلة الموضع الثانى فقد كان ما قبلها علة لما بعدها ، وذكر كلاهما ترتيبا مع التعقيب ، ومثال ذلك قوله تعالى ، فى وصف ما حل بقوم شعيب :

« واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين » .
(هود : ٩٤)

*

والذى يهمنا بيانه الآن هو ان التعقيب لا يعنى اتسام حدثين فى فترتين متلاحقتين دائما من الزمن ، ولكنه يمكن أن يعنى وجود فترة زمنية تفصل بين الحدثين ، تقصر فتكون عدة ساعات ، وقد تطول فتكون أياما وما هو أطول من الايام .

ويتبين ذلك من قوله تعالى فى وصف ما حل بثمود بعد أن عقروا الناقة :

« فعقروها فاصبحوا نادمين . فاخذهم العذاب . ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين » . **(الشعراء : ١٥٧ ـ ١٥٨)**

ومن المعلوم أن مهلة العذاب بعد عقر الناقة كانت ثلاثة أيام ، كما تذكر سورة هود :

« فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ، ذلك وعد غير مكذوب » .
(هود : ٦٥)

فاذا تصورنا ان الندم لحق بعضهم ـ أو كلهم ـ صبيحة اليوم التالى لعقر الناقة ، لكان هذا يعنى ان الندم أصابهم بعد فترة يوم من عقرها ، وأن العذاب أصابهم بعد فترة أكثر من يومين من الندم .

اما اذا كان الندم قد اصابهم فى صبيحة اليوم الرابع حين أحسوا بالكارثة تطبق عليهم ، فان هذا يعنى أن الفترة بين العقر والندم تزيد على ثلاثة أيام .

وفى كلا الحالتين يتحقق ما نقوله من أن حرف الفاء ـ فى دلالته على التعقيب ـ يسمح استخدامه بأن تكون الفترة بين حدثين متعاقبين عدة ساعات أو عدة أيام أو ما هو أكثر من هذا . وقياسا على ذلك نستطيع أن نفهم من قوله ـ تعالى ـ فى وصف ما حل بثمود واصحاب مدين .

« فاخذتهم الرجفة ، فاصبحوا فى دارهم جاثمين » .

(الأعراف : ٧٨ ، العنكبوت : ٣٧)

انه مرت فترة ـ لعلها عدة ساعات أو يوما أو بعض يوم ـ بين الرجفة وتحولهم الى جثث خامدة لا حراك فيها .

ونخرج بنفس المفهوم من آية الصيحة ـ التى ذكرناها انفا ـ والتى اصابت قوم شعيب أصحاب مدين ، أى أنه مرت فترة من الزمن بين اطلاق الصيحة والقضاء عليهم حين صاروا جثثا خامدة فى ديارهم .

وكذلك مرت فترة ما بين اطلاق الصيحة على قوم لوط وتدمير قراهم بجعل عاليها سافلها كما تقول الآية الكريمة :

« فاخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل » . (الحجر : ٧٣ ـ ٧٤)

* * *

مشـاهد ...

والآن نعرض بعضا من المشاهد التى تعرضت لها نجازاكى منقولة الينا بلغة أهلها ، مع ما يمكن أن نقوله فى تلك المشاهد بلغة القرآن الكريم .

المشـــهد الأول :

يقول الشهود « رأى (كاتو) غمامة تشبه الكرة الضخمة من القطن تنفتح فوق سماء اوراكامى وأخذت تتسع فى سرعة خاطفة وكأن ضوءها ضوء مصباح مغلف بقطعة من الصوف . كان منظرها الخارجى أبيض أما

داخلها فكان يبدو شعلة حمراء يتصاعد منها لهب أحمر . ومن الكرة البيضاء تنبعث دون توقف كل الألوان وكأنها قوس قزح .

أخذت الكرة هيئة القلادة وأخذ رأسها يرتفع شيئا فشيئا الى أن كونت قرصا كبيرا وقامت فى الوقت ذاته عاصفة سوداء من الغبار والمواد المتناثرة فى اوراكامى ، وكأنها هيت أثر هذا القرص الكبير وفجأة ارتفعت الزوبعة الى ما هو اعلى الجبل ..

ورأى (تاجاوا) بقعة من الدخان الأبيض .. واخذت البقعة فى الاتساع. كانت البقعة بيضاء تتحرك على شكل قبعة ضخمة فى محيط قطره كيلو متر ..

وسقطت كرات أصابت احداها قدم الرجل (تاكامى) ثم انفجرت وتركت عمودا أبيض من الدخان .. ثم اعقبها سقوط وابل من النيران فاشتعلت الحرائق هنا وهناك » .

وتقول ــ على الفور ــ بلغة القرآن الكريم :

لقد ((اخذهم عذاب يوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم)) (١) .

* * *

المشهد الثانى :

يقول الشهود : « مرت خمس ثوان .. عشر ثوان .. دقيقة والرجل (تسو شيمونو) يحبس انفاسه ثم انبعث نور قوى فى ابراج السماء وضوء وهاج لا مثيل له .. ثم رأى المكان الذى تقوم فيه الكاتدرائية وقد انطلق منه عمود دخان أبيض ثم أخذ فى الاتساع .

ورأى (فيرو) على قمة جبل اينوز كرة حمراء من النار ، براقة كأنها عمود قوى من المغنسيوم داخل مصباح ، ثم وقعت الكرة ولم يتصور الرجل كنهها ..

---

(١) سورة الشعراء : ١٨٩ .

وبوغت الرجل (تاكامى) بحرارة شديدة تكاد تحرقه وجاموسته أعقبها تساقط كرات من النار عليهما » .

لقد كانوا ينظرون العذاب وهو واقع بهم فلم يجدوا عنه مصرفا وفى هذا المشهد نقتبس من القرآن الكريم قوله فى مشهد مماثل :

لقد « أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » (١) .

* * *

المشـــهد الثالث :

يقول الشهود : « كانت الحرارة الناشئة من الانفجار هى تسعة آلاف درجة ، فأحرقت كل ما صادفها ، وأذاب التفجير المعادن التى ارتفعت ثم هبطت كالشهب الملتهبة فأضاءت وأشعلت الحرائق فى كل مكان ..

وبدأت تتساقط من السماء نقط كبيرة سوداء فى حجم عقلة الاصبع ، تهطل من سحابة عالية دكناء وكأنها نقط من البترول حيث كانت تنزل على النيران فتزيدها التهابا واشتعالا ، فزاد هذا من بشاعة المنظر » .

لقد أمطرت نجازاكى على غير المعتاد ، لم ينزل عليها من السماء ماء أو برد أو نحوه وانما أصابها مطر سوء كان حمما ملتهبة ومعادن منصهرة وحجارة قذف بها من الأرض الى ارتفاعات عالية فى السماء ثم اسقطت ثانية الى الأرض .

ويحدثنا القرآن الكريم عن قوم أنذروا العذاب فلم يعبأوا به ، فجاءهم من السماء فى صـــورة مطر سوء على غير المعتـــاد . وفى هذا يقول القرآن الكريم فيما نزل بأولئك المهلكين :

« وأمطرنا عليهم مطرا ، فساء مطر المنذرين » (٢) .

---

(١) سورة الذاريات : ٤٤ .

(٢) سورة الشعراء : ١٧٣ .

وصارت تلك القرية التى تعرضت لمطر السوء مكانا يفيض على المارين بها ضروبا من المشاعر والذكريات ، ومنبعا للعبر لكل من يعتبر ، وفى هذا يقول القرآن الكريم :

« ولقد أتوا على القرية التى امطرت مطر السوء ، افلم يكونوا يرونها ، بل كانوا لا يرجون نشورا » (١) .

* * *

المشـــهد الرابع :

يقول الشهود : « فى الساعة الحادية عشرة تفجرت قنبلة ذرية على ارتفاع ٥٥٠ مترا فوق ماتسوياماكى قلب حى ايراكامى فى مدينة نجازاكى وأخذ صفير العاصفة يجتاح المنطقة بسرعة الفى متر فى الثانية .

لكن الرعب الذى استولى على السيد تسوشيموتو والذى جمد له دمه ، هو ذلك الصفير المرعب الذي انطلق من تحت الغمامة البيضاء .. انطلق فى سرعة خاطفة يكتسح سفح الجبل ويجتاز الحقول فى أقل من لمح البصر ..

ان مبانى (الجامعة) عانت الأمرين من قوة الصفير الهائل ، فردهات المحاضرات الاساسية الكبرى فى كلية الطب كانت كلها من الخشب ، ولذا تمزقت جميعها أو تفتتت ثم احترقت فصارت رمادا .. »

ونقتبس لغة القرآن الكريم فنقول :

لقد « اخذتهم الصيحة مصبحين » (٢) .

* * *

---

(١) سورة الفرقان : ٤٠ .

(٢) سورة الحجر : ٨٣ .

المشـــهد الخامس :

ويقول الشهود : « برق فجأة ضـــوء خاطف ثم أعقب ذلك اندفاع النوافذ الى الداخل بفعل ريح عاتية ، ورأيت نفسى وقد ارتفعت فى الفضاء مفتوح العينين وأبصرت تناثر الزجاج وبعض أشياء وهى تدور كما تدور أوراق الشجر فى دوامة مخيفة .

شعرت كأن قبضة قوية جبارة غير منظورة قبضت على الحجرة بأسرها مرة واحدة فهزتها هزا وقلبتها بما فيها ثم جمعت كل ما فى الحجرة ووضعته فوق رأسى فى ضجة وصخب هائلين .

أخذ صفير العاصفة بقلب الأرض ويحتاجها وما احتـــوت ، وقد رفع الفراغ الذى نشأ من ذلك فى منطقة الانفجار كل ما تنـــاثر ثم القى به على الأرض ..

وأخذ الرجل يطوف بالمنطقة كلها كأنه قد أصابه الصرع .. وبدأت عقب ذلك تتطاير البيوت التى على السفح وتتناثر اشجار الحقول أمام ناظريه بسبب تلك الظاهرة العجيبة .

صارت كل هذه الاشياء تتراقص تراقصا عجيبا .. وتبينت المرضة أن حياة ما قد دبت فى الاشياء الصماء فبدأت هذه الشياء تزحف ثم تتجمع بقوة سحرية .. اكتسحت المكان الذى كان يختبىء فيه قوة رهيبة عجيبة غير مرئية ذات ضغط لا حد له كانت تسحق كل ما يقع فى طريقها .. »

لقد اهتزت كل الأشياء : اهتز الانسان والجماد والحيوان والنبات .

اهتزت وتراقصت ..لقد اخذتها الرجفة .

ولننتظر قليلا حتى نرى المشهد السادس ، لنعلم ماذا أعقب تلك الرجفة وترتب عليها ثم نرجع بعد ذلك الى القرآن الكريم .

* * *

المشـــهد السادس :

يقول الشهود : « كانت الممرات وقاعات الانتظار والمعامل ملأى باكوام من البشر .. تحولوا الى أجسام فوق أجســام .. الكل عراة والجروح متفتحة وكان منهم صاحب الجسم العارى وقد سلخ جلده ومنهم آخرون عراة دكن لون جلدهم بسبب التراب وقطع الزجاج .. كان منظر الضحايا مؤلما للغاية .. كان الدم ينبثق من كل مكان فى أجسامهم : من العين والاذن والانف ، وكان المخ فى الجثة قد سحق سحقا ، بل كان البعض يلفظ من فمه قطعا مكورة من الدماء ..

لقد طرحوا أرضا والتصقوا بها فى قوة خارقة ..

كذلك كانت الجثث معلقة رءوسها فى الأرض وقد انتزعت أذرعهـا وأرجلهـا فى كل مكان على بقايا الحوائط الحجـرية وفى الطـرقات وفى الحقول » .

لقد سبق أن وصف القرآن الكريم حال أناس تعرضوا لمثل ما تعرض له أصحاب المشهدين الخامس والسادس فقال فيهم :

« اخذتهم الرجفة ، فاصبحوا فى دارهم جاثمين » (١) .
وصاروا بحق « كهشيم المحتظر » (٢) .

* * *

المشـــهد السابع :

رأى (فيرو) على قمة جبل انيوز كرة حمراء براقة كأنها عمود قوى من المغنسيوم .. ولكى يتمكن من رؤيتها جيدا ، وضع يده على احدى عينيه وجرب الرؤية بالعين الأخرى ..

---

(١) سورة الاعراف : ٧٨ ، وسورة العنكبوت : ٣٧ .
(٢) سورة القمر : ٣١ .

لقد فقد الوعى عدة ساعات ولما تنبه ألقى نفسه فى حقل أرز .

وكل ما يذكره بعد ذلك أنه صار بعين واحدة .. لقد فقد الأخرى نهائيا » .

هذا ــ ولنفرض الآن أنه فى أحد أيام الاسبوع الأول من شهر اغسطس عام ١٩٤٥ ، استطاعت اليابان الحصول على معلومات مفادها أن الولايات المتحدة ستقوم غدا صباحا بضرب احدى المدن اليابانية بسلاح رهيب يستخدم لأول مرة فى الحرب العالمية الثانية ، وان المعلومات التى توافرت عن ذلك السلاح الجديد تجعله من أسلحة التدمير الشامل لماله من طاقة تفجير هائلة تظهر على شكل ضغط ووهج حرارى واشعاعات قاتلة . فمن المؤكد أن أول اجراء تتخذه اليابان هو تخطيط وتنفيذ عملية اجلاء شاملة لمواطنى تلك المدينة المهددة . ومن البديهى أن تتم عملية الجلاء فى جنح الليل حتى تقل احتمالات كشفها بواسطة القوات المعادية ، وبالتالى تزداد فرص نجاح العملية واذا كانت المعلومات التى توصلت اليها اليابان دقيقة لدرجة أنها عرفت تأثير الوهج المبهر على الاعين ، وأنه يذهب ببصرها فيسبب لها عمى مؤقتا أو عمى مستديما ــ حسب البعد عن مكان الانفجار أو القرب منه ــ فمن المؤكد كذلك أن التعليمات التى ستصدرها السلطات اليابانية المختصة ستكون صارمة الى أقصى حد ، وأن من بينها بندا يقول لقائد كل قافلة مرتحلة :

« اسر .. بقطع من الليل .. ولا يلتفت منكم احد وامضوا حيث تؤمرون » .

لقد حدث منذ اكثر من ٣٦٠٠ عاما قبل القاء القنبلة الذرية على اليابان أن اصدر رسل الله تعليمات النجاة الى لوط ، وكانت تقول له بكل حزم :

« اسر باهلك بقطع من الليل ، واتبع ادبارهم ، ولا يلتفت منكم احد ، وامضوا حيث تؤمرون » (١) .

---

(١) سورة الحجر : ٦٥ .

لقد فرض حظر التلفت على لوط وأهله حفاظا عليهم ودرءا لخطر ينتظرهم . فهم حين يسرون ليلا بعيدا عن قريتهم ثم يسمعون الصيحة خلفهم سوف يلتفتون بحكم الغريزة ـ استطلاعا لما يجرى حولهم ـ وعندئذ يصيبهم شر كان يمكن توقيه لو صدعوا للامر . ومن المؤكد أن هذا الشر يتعلق بعيونهم دون أجسامهم وأعضائهم الأخرى مثل الآذان والأيدى والأرجل ، فلابد ـ اذن ـ أن كون هذا الشر هو تعرض عيونهم للعمى ، ولا كون ذلك الا بسبب ضوء وهاج .

ومن أجل ذلك صدر اليهم ذلك الأمر « لا يلتفت منكم أحد » ـ حفاظا على أبصارهم ، وتجنبا لأى آثار نفسية تترتب على رؤيتهم ذلك المشهد المهول .

ولم يكن هناك من سبب ـ فى تقديرى ـ لهذا الأمر غير ذلك .

* * *

وبعد ـ تكفينا هذه المشاهد السبعة ، التى اقتبسنا لوصفها من لغة القرآن الكريم ما جمعت فأوعت ، وتشابهت فائتلفت ، وكانت من الدقة والوضوح مما جعلنا نستغنى لفهمها عن الشروح والتأويلات .

* * *

معالم الحقيقة

« الحكمة ضالة المؤمن » ...

انها حكمة من جوامع الكلم ، نطق بها سيدنا رسول الله .

والحكمة هى العلم بحقائق الأمور ومعرفة ما بينها من علائق ، الأمر الذى يدفع للوصول الى محكمها من أمها تالحقائق بهدف معرفة الحق والخير المغلف بالجمال .

فلما كنا ننشد الحق والخير فى هذا المبحث كان لزاما علينا أن نبحث عن الحقائق وما بينها من روابط وعلاقات بما يسمح باستخلاص النتائج الصحيحة فى غير تجاوز أو اسراف .

*

وعلى ضوء ماتقدم ، نستطيع الآن رسم الصورة التى نراها ـ صادقة ـ لحقيقة التدمير الذى أصاب أقواما من القرون الأولى هم : ثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، فنلخص خطوطها الرئيسية كالآتى :

لقد كان ما حـل بتلك الأقوام رهيبا ، فقد قضى على الأنفس وخرب الديار وأهلك الحرث والنسل ، وتم ذلك كله فى فترة زمنية وجيزة أقلها لحظات ، وأطولها سـاعات أو ايام ولقد كان التدمير مصـحوبا بظواهر طبيعية تمثلت فى أصوا تمفزعة ، وصواعق جوية ، وظللا من الوهج والعذاب ، ونيرانا وقذائف تسقط من السماء .

وبقى من نواتج ذلك التدمير ما استمر يحـدث آثاره المهلكة قرون عديدة .

وثمة عامل آخر ــ هام وكاف أن يقوم وحده ــ هو ذلك التطابق التام الذى رأيناه بين المشاهد التى عاينتها الانسانية للتدمير الذرى الذى أصاب المدينة اليابانية فى منتصف القرن العشرين ــ عام ١٩٤٥ ــ وبين تلك المشاهد من تدمير القرون الأولى ، والتى قصها علينا القرآن الكريم .

ان هذا كله يدفعنا لتقرير : ان تلك القرون الأولى قد هلكت بفعل تدمير ذرى .

ولا غرابة فى ذلك ..

ذلك ان ماحققه العلم من تقدم ــ ونحن فى مطلع الربع الأخير من القرن العشرين ــ يزيل أوجه الاستغراب فى استخدام الطاقة الذرية فى تدمير تلك القرون .

لقد أصبح طلبة المدارس الاعدادية على علم بأن الطاقة الهائلة التى تمدنا بها الشمس فى صورة ضوء وحرارة واشعاعات أخرى ، انما تنتج عن تفاعلات نووية مستمرة يتحول فيها الايدروجين الى هيليوم وتفقد الشمس من كتلتها ٤ مليون طن من المادة فى كل ثانية ، فتتحرر هذه الطاقة الهائلة . أى أننا نعيش فى ظل تفاعلات ذرية مستمرة ، تنم على أبعاد سحيقة بقدر فيصيبنا منها الخير الكثير ، كما يصيبنا بعض الأذى نتيجة لتساقط جزء من الأشعة الكونية على الأرض ، رغم ما تقوم به طبقات الجو العليا من حجاب حاجز يمنعها فلا يصلنا منها الا الشىء القليل .

ان التفاعلات النووية أو الانفجارات الذرية تعتبر ــ اذن ــ ظواهر طبيعية .

لقد استخدم الطوفان فى تدمير قوم نوح ، واستخدمت الريح فى تدمير عاد قوم هود ، وكلاهما ــ الطوفان والريح ــ عمل من أعمال الطبيعة ، فكل منهما ظاهرة طبيعية .

اننى أقول دائما ــ ويقول كل مؤمن ــ أن الكون وظواهره من صنع البارى ، وانه ــ جلت قدرته ــ يسيره وفق سنن ونواميس لا تعرف الخلل أو الصدفة أو الاضطراب ، واذا تراءى لنا ان شيئا من ذلك قد حدث ، فالخلل فى رؤيتنا نحن وفى تفسيرنا للحوادث . والله قادر ان يهلك كل فرد من القرون الأولى والأخيرة فى لحظة واحدة ــ وفى صمت كصمت أصحاب القبور ــ لكن قوى الطبيعة التى خلقها الله قد خلقت لتعمل وفق امره سبحانه :

« وكان امر الله قدرا مقدورا » . (الاحزاب : ٣٨)

ومن أعمال قوى الطبيعة ان تنزل العقاب الالهى بالظالمين ، فتلك سنة من سنن الله فى كونه :

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .
(فاطر : ٤٣)

* *

هذا ــ وتزداد أمامنا صورة التدمير الذى حاق بتلك القرون الأولى وضوحا ، حين تقدر موقفها العمرانى ومن ثم أنسب حالات الضرب الذرى التى تتفق وما قصه علينا القرآن الكريم من أنبائها فنعلم كيف هلكت تلك القرون .

* * *

كيف هلكت ثمود :

نقرأ فى القرآن الكريم ما دار من محاورات وجدل كثير بين الرسل وأقوامهم ، فنعلم من ذلك الحالة التى كانت عليها تلك الأقوام اقتصاديا واجتماعيا وسكانيا .

فبالنسبة لثمود يذكر القرآن الكريم على لسان صالح قوله :

« يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ، ان ربى قريب مجيب » .
(هود : ٦١)

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » . (الأعراف : ٧٤)

« أتتركون فى ماهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا آمنين . فاتقوا الله وأطيعون » .
(الشعراء : ١٤٦ ـ ١٥٠)

من ذلك يتبين أن ثمود كانت تسكن القصور ، وتنحت الجبال بيوتا ، وتعيش فى مراعى خضراء وسهول واسعة ومنشآت وحصون ، كما كانت شعبا وفيرا العدد والعدة .

*

وبناء على ما سبق نتوقع أن يكون تدمير ثمود قد تم بتفجير ذرى من الجو ، ذلك أن هذا النوع من التفجير يستنفذ نحو ٥٠٪ من طاقته فى صورة ضغط يلزم لتدمير المنشآت والدور والقصور ، ثم هو يعطى وهجا حراريا يحرق ما يصادفه من انسان وحيوان ونبات ، ويخلف اشعاعات ذرية تقضى على البقية الباقية .

ولقد قال القرآن فى ثمود :

« أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » .

كما أن الاشعاعات الذرية يمكن أن تصيب الهلكى بالشلل اذا كانوا فى حدود دائرتها الخطرة ، ولعل هذا ما يفهم من قول القرآن :

« فما استطاعوا من قيام ، وما كانوا منتصرين » .

ولقد علمنا من الحديث عن ظاهرة الفجر القطبى ، ان هناك من التفجيرات الذرية فى أعالى الجو ما يسمح بتوليد صواعق كهربية تحرق وتدمر . وليس هناك ما يمنع من حدوث شىء من ذلك لثمود .

*

انتدمير ثمود بانفجار ذرى جوى يحقق فيهم تلك المشاهد التى نراهم فيها كما يقصها علينا القرآن الكريم . ومن هذه المشاهد :

« أخذتهم صاعقة العذاب الهون » .
« أصبحوا فى ديارهم جاثمين » .
« أخـذهم العـذاب » .
« أهلكوا بالطاغية » .
« كانوا كهشيم المحتظر » .
« دمرناهم وقومهم اجمعين » .

وان تدمير ثمود بانفجار ذرى ليتفق وما جاء فى أحاديث الرسول عن ديارهم ، فقد اعتبرت منطقة ملوثة يحظر العيش فيها ، ثم هـو يتفق كذلك وما جاء فى قصة ابى رغال ، وكان عبدا صالحا منهم ذهب الى ملجأ بعيد فكان فى حرم الله ، فوقاه الهلاك الذرى ، حتى اذا ما ترك ملجأه وسار فى منطقتهم قتلته الاشعاعات الذرية التى كانت لا تزال على أشدها آنذاك .

* * *

كيف هلك قوم لوط :

كان مما دار من حديث بين لوط وقومه ، وبين ابراهيم ورسل الله :

« انكم لتاتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتاتون فى ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين .. ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى . قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين . قال ان فيها لوطا ، قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امراته كانت من الغابرين » (العنكبوت : ٢٩ ـ ٣٢)

من ذلك نعلم ضعف الحالة العامة التى كان عليها قوم لوط ، فقد كانوا يسكنون قرية رئيسية قد تجاورها بعض القرى الصغيرة ، وكانوا متعبين اقتصاديا مما اضطرهم الى العمل قطاعا للطرق يسلبون الناس أموالهم . وكانوا قلة فى الاعداد والمنشآت التى تتوقع الا تزيد عن كونها بيوتا من الطين والخيام ونحوه .

فهم بذلك يختلفون تماما عن الحالة التى كانت عليها ثمود من قوة وسعة .

ان ضعف المنشآت فى قرية ــ أو قرى ــ قوم لوط وصغر مساحتها ، وما اختصوا بذكره فى القرآن الكريم من أمطارهم بحجارة من سجيل وحجارة من طين ، يجعلنا نتوقع أن يكون تدميرهم قد تم بانفجار ذرى أرضى قريب من السطح .

فمثل هذا الانفجار يحتفظ بالجزء الاكبر من طاقته لتظهر على صورة ضغط ، وهو كفيل بأن يقلب قرية ــ أو عدة قرى ــ من الطين أو اللبن فيجعل عاليها سافلها .

فبالرغم من ان انفجار نجازاكى كان من الجو على ارتفاع نحو ٦٠٠ متر ، الا أنه كان شديد التأثير فى التربة فقد « أذاب التفجير المعادن التى ارتفعت ثم هبطت كالشهب الملتهبة فأضاءت وأشعلت الحرائق فى كل مكان» كما جاء فى شهادة شهود الكارثة .

ولما كانت قرى قوم لوط تقع جنوب البحر الميت ، وهى منطقة غنية بالفوسفات والمنجنيز والمعادن والاملاح ، فان حدوث تفجير ذرى فى هذه المنطقة كفيل بأن يصهر تلك المعادن ويكون منها مخلوطات ومركبات تقذف قوة ضغط التفجير ببعضها الى اعلا عدة كيلو مترات ثم تسقط ثانية الى الأرض على هيئة أمطار من بللورات شديدة الصلابة بعد أن تكون قد تعرضت لطبقات الجو العليا الباردة ، فتماسكت وجمدت .

كما أن البعض الآخر يقذف به حول منطقة التفجير من ارتفاعات منخفضة وهو على هيئة حمم ملتهبة تسقط ثانية الى الأرض على هيئة أمطار سوء تصيب كل من يتعرض لها .

*

لقد وصفت بعض الحجارة التى أمطر بها قوم لوط بانها « من طين » ولكى يتحول الطين الى حجارة فلا بد له من حرارة شديدة تذهب بمائه فتزداد جزئياته تماسكا .

ومنذ عشرات القرون يستخدم الطين المحروق فى بناء الأبراج العالية والقلاع الحصينة وعلى عهد موسى :

« قال فرعون : يا ايها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين »

ولما كانت موجات ضغط الانفجار الذرى تنتشر فى لحظاتها الأولى بسرعات كبيرة تزيد عن سرعة الصوت أى تزيد عن ١٢٠٠ كيلو مترا فى الساعة ، فان هذا الضغط يعطى الأجسام التى يكتسحها طاقة حركة هائلة تزيد كثيرا عن تلك الطاقة التى يدفع بها اعصار قوى ــ يتحرك بسرعة ٥٠٠ كيلو مترا فى الساعة ــ ما يصادفه من أجسام مثل هذه .

وفى دراسة عن مثل هذه الاعاصير « سجلت الصور أن أعواد الذرة كانت تخترق الأبواب والأشجار ، وان أعواد القمح الضعيفة كانت تغوص فى جذوع الشجر الى مسافة سنتيمتر .. ، واخترقت قولحة ذرة رأس حصان ! ... وكانت العصى الخشبية تثقب الواحا رقيقة نسبيا من الحديد ! .. وحمل الاعصار احد أعمدة التليفون واخترق به تماما جذع شجرة من أشجار الزان ..

وللاعاصير أصوات ضخمة تصم الآذان ، ويمكن تشبيهها بمجموع الاصوات الناتجة عن اندفاع عشرة آلاف قاطرة من قاطرات السكك الحديدية دفعة واحدة فى ليل ساكن »(١) .

---

(١) دورات الحياة ــ تأليف الدكتور عبد المحسن صالح ــ ص ٧٤ .

ولنا أن نتوقع اذن أن يكون فعل تلك الحجارة التى أمطر بها قوم لوط مناظرا على الأقل لما يفعله الرصاص المنطلق من فوهات الأسلحة الصغيرة كالبنادق والمسدسات ، بل وان تأثيرها فى الانسان ليتعدى ذلك لكونها حجارة محماة وملوثة بالاشعاعات الذرية .

والسجيل ــ عند العرب ــ كل صلد شديد ومنضود أى يتبع بعضه بعضـــا .

وقد ذكر أيضا فى معنى حجارة من سجيل أنها حجارة محماة أو مطبوخة بنار جهنم ، أى مطبوخة فى سعير ملتهب . فكل ما كانت حرارته عالية جدا يسمى جهنم أو الجحيم كما فى قصة ابراهيم وقومه الذين

« قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم » . **(الصافات : ٩٧)**

وعلى ذلك نفهم أن « حجارة من سجيل منضود » أى حجارة تعرضت لحرارة زائدة ، ثم تماسكت فصارت صلدا ، ثم تســاقطت عليهم مطرا غزيرا يتبع بعضه بعضا . وحين توصف تلك الحجارة بأنها « حجارة من طين » فان هذا يعطينا فكرة عن أن تلك الحجارة قد جاءت أصلا من الطين أى من الأرض .

ومن ثم تتبين أن هذه الأوصاف يتمم بعضها بعضا ، وتتفق جميعها وتلك الحجارة التى يقذف بها فى انفجار ذرى أرضى .

وعلى ذلك يجب اعادة النظر فيما قاله المفسرون بأن تلك الحجارة ــ التى كانت فى حجم حبة القمح ــ من أنها كانت تسقط على رأس اللوطى فتخرج من دبره ، باعتبار ذلك قول صحيح يتفق وما يحدث فى الطبيعة .

*

ان تدمير قوم لوط بانفجار ذرى أرضى يتفق وما قرره العــلم من ان « التفاعلات البللورية التى وجدت فى هيروشيما دلت على ان تربتها تحــولت بعد القاء القنبلة الذرية عليها الى بقايا اشبه بما كان فى ســـدوم وعمورة فى فلسطين حيث عاش قوم لوط » .

وهو يتفق كذلك وتلك الصور التى نراهم عليها فيما نقرأه من آيات القرآن الكريم :

« ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » .

« وامطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » .

« فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها ، وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضـــود » .

❁ ❁ ❁

كيف هلك اصحاب مدين :

لقد كان مما قاله شعيب لقومه :

« يا قوم اعبـــدوا الله مالكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فاوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس اشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . واذكروا اذ كنتم قليـــلا فكثركم ، وانتظروا كيف كان عاقبة المفسدين » .

(الأعراف : ٨٥ ـ ٨٦)

وقال لهم شعيب :

« انى اراكم بخير ، وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط . قالوا ياشعيب اصلواتك تامرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل فى اموالنا ما نشاء ، انك لانت الحليم الرشيد . قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنـــه ، ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب » .

(هود : ٨٤ ـ ٨٨)

لقد كان شعيب وقومه فى رغد من العيش ، ذوى أموال وتجارة رائجة وجنات وعيون وكثرة فى التعداد ، ومن ثم كانوا على درجة من التمـــدين ومظاهره من دور وقصور ، وان كانت أقل قطعا مما كانت عليه ثمود ، ولم يعرف عنهم نحت الجبال بيوتا .

❁

ونظرا لوجود صورة من التشابه العمرانى بين ثمود واصحاب مدين فمن المتوقع اذن ان يكون تدميرهما قد تم بنفس الكيفية ، أى أن أصحاب مدين هلكوا نتيجة لحدوث انفجار ذرى من الجو .

ولقد تميز تدمير مدين بتلك « الظلة » التى اختصهم بها القرآن الكريم وهى سحابة مرتفعة كان قدامى المفسرين موفقين أيما توفيق حينما عرفوها بانها « سحابة فيها سموم » . وما نحسبها سوى سحابة الانفجار الذرى التى تتصاعد عالية فى حالة الانفجار الجوى ، ثم تعود لتهبط الى الأرض.

ومن المتوقع أن يكون الانفجار الذرى لأصحاب مدين قد حدث على ارتفاعات أعلا من نظيره الذى حدث لثمود ، ذلك ان التفجير فى الارتفاعات العليا يمنع عمود الغبار المتصاعد من الأرض أن يتصل بالسحابة وتبقى هى بمفردها ظلة تغشى ما تغشى ، كما ان هذا النوع من التفجير تزداد فيه طاقة الوهج الحرارى وهو ما يلزم لاحراق الأشجار والجنات التى اشتهر بها قوم شعيب ، حتى انهم عرفوا باسم « أصحاب الايكة » .

وفى هذا النوع من التفجير تتحقق فى قوم شعيب هذه الصور التى نراهم عليها فى القرآن الكريم :

« أخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين » .

لقد « اخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم » .

* *

والآن ــ نرجو أن يكون قد استبان السبيل ، ووضحت المعالم ، وظهر لنا من الأمور ما يجعلنا نقول

بان تلك القرون الأولى : ثمود ــ وقوم لوط ــ واصحاب مدين ، قد هلكت بانفجارات ذرية .

ثم لا نملك الا أن نقول ــ عند هذا الحد ــ ما تعلمناه من الذين أوتوا العلم والايمان ، حين يلقون القول فى قضية ، ان تكون عاقبة قولهم :

والله اعـــلم

* * *

الانسان : المنهج والمصير

« كان الانسان اكثر شيء جدلا » .. ولا يزال

وكانت مأساته كامنة فى محاولات التمرد على منهج خالقه .. وما تزال.

ويشهد التاريخ على ضياع هذا النوع من الانسان .. لأنه يسبح دائما ضد التيار الجارف .. وينطح رأسه فى جلاميد الصخر .. ويستعجل نهايته على طريق الدمار .

*

ومن أمثلة انسان الدمار ، تلك القرون الأولى : ثمود وقـوم لوط وأصحاب مدين . لقد تمردوا على منهج خالقهم ، وأكثر من ذلك ان اختاروا طريق التحدى .. فقد استعجلوا جميعا عذاب الله هزوءا واستخفافا .. فجاءهم العذاب .

فهذه ثمود قوم صالح :

« عتوا عن امر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين »

وهؤلاء قوم لوط قالوا لرسولهم :

« ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » .

وهؤلاء أصحاب مدين قوم شعيب قالوا لرسولهم :

« اسقط علينا كسفا من السماء ، ان كنت من الصادقين » .

لقد بلغ التحدى من أصحاب مدين كل مبلغ حين طلبوا ان يأتيهم العذاب غاشية من السماء ، فجاءتهم الظلة .. غاشية من السماء .

لقدجاءهم جميعا عذاب الله .

ان هذه سنة الله فى خلقه :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون » .

« فكلا أخذنا بذنبه : فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا
ومنهم من أخذتهم الصيحة
ومنهم من خسفنا به الأرض
ومنهم من اغرقنا
وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .

*

ان منهج الله واضح تمام الوضوح ، مكين يضمن للانسان الأمن فى يومه وغده ، وان مشكلة الانسان ــ منذ جاء الى ان يرحل ــ هى ضمان الامن والسلام فى نفسه وفيما حوله . ولن يحصل الانسان على أقل القليل من الأمن والسلام المفقود ، الا اذا أقام منهج الله ، الذى يتمثل ــ كما سبق القول فى :

ايمان بالله الواحد يصدقه عمل صالح .

ان هذا ما اجمعت عليه كتب السماء على مر العصور والازمان .

*

فلقد كانت أول الوصايا الى موسى .

« انا الرب الهك . لا يكن لك آلهة اخرى امامى . اكرم اباك وامك . لا تقتل لا تزن لا تسرق . لا تشهد . شهادة زور . لا تشته امراة قريبك ».
(خروج : ٢٠)

وكانت شهادة التوحيد الخالص هى الوحى الى النبى اشعيا :

« يقول الرب : قبلى لم يصور اله وبعدى لا يكون . انا الله . ولا اله غيرى » . **(أشعياء : ٤٣ ، ٤٤)**

*

وكانت شهادة التوحيد الخالص هى صلاة المسيح لربه وخالقه . ان هذا ما يسجله انجيل يوحنا :

« تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال :
وهذه هى الحياة الأبدية :
ان يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك
ويسوع المسيح الذى أرسلته » .. **(يوحنا : ١٧)**
ان هذا يعنى بنفس اللغة : لا اله الا الله . المسيح رسول الله .

وكيف لا ، والمسيح ــ يخجل ان ينسب اليه شيء من الصلاح ، ثم يرد الصلاح كله لله . لقد كان هذا ما علم به تلاميذه وبنى قومه :

« واذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح ، اى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية .

فقال له : لماذا تدعونى صالحا ، ليس أحد صالحا الا واحد وهو الله . ولكن ان أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا : لا تقتل . لا تزن . لا تسرق لا تشهد بالزور . أكرم أباك وأمك . واحب قريبك كنفسك . (متى : ١٩)

* *

وان التوحيد الخالص هو الأساس الذى يقوم عليه الاسلام وهو من أعظم مايتميز به :

« فاعلم انه لا اله الا الله » . **(سورة : محمد)**

« قل هو الله احد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا احد » . **(سورة : الاخلاص)**

« ومن أحسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا » . **(سورة : النساء)**

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . **(سورة : الأحقاف)**

والآن : ولم يعد لنا من قول ، فلنختم بهذا القول الكريم :

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين ..
« والحمد لله رب العالمين »

* * *